المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تَعظِيمُ اللهِ تَعَالى
فِي هِدايَات القُرْآن الكَرِيم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

مظاهر تعظيم الله في قصص أولي العزم من الرسل والاستفادة منها في التربية

اسم الباحث

د/ ممدوح بن خويلد بن دراج الدحيلان

د. ممدوح بن خويلد بن دراج الدّحيلان

مظاهر تعظيم الله تعالى

في قصص أولي العزم من الرّسل والاستفادة منها في التربية

التمهيد

إنَّ من رحمة الله بعباده أنَّه لا يؤاخذهم بما فعلوا، ولا يجازيهم بالعذاب إلا بعد أن يُقيم البرهان عليهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فيرسل الله الرَّسل، حتىٰ لا يكون للناس علىٰ الله حُجّة، قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء]، لذا يُعَدُّ الإيمانُ بالأنبياء والرّسل الرُّكنَ الرّابعَ من أركان الإيمان، فلا يمكن للإنسان أن يحقِّق الهدفَ الذي من أجله خلقه الله إلَّا عن طريق الإيمان بالرسل، واتِّباعهم، فلا خير إلَّا دلُّوا أممهم عليه، ولا شرَّ إلَّا حذروهم منه، أرحم الخلق بالخلق، وأنصح الخلق للخلق، أبرُّهم قلوبًا، وأصدُقهم ألسنةً، ليسوا بمتجبرين، ولا متسلطين، وإنَّما هم رحمةٌ للعالمين.

مشكلة البحث:

إنَّ المتأمل في هذا الكون بسمائه ونجومه، وأرضه وكواكبه وسهوله وجباله، وأنهاره وبحاره، وشجره وزرعه، لا شكَّ أنَّ عقله سيهديه إلىٰ وجود ربٍّ عظيم مالك لهذا الكون، ولكن ما صفات هذا الخالق؟ وبماذا أمرنا؟ ولماذا خلقنا؟ وكيف نعبده حقَّ عبادته؟ ونقدره حقَّ قدره؟

كل هذه الأمور لا يمكن للعبد الضَّعيف أن يتعرَّف عليها بنفسه إلَّا أن يخبره هذا الخالق العظيم، فمن رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم رُسُلًا يُعَرِّفون النَّاسَ بهذا الرَّبِّ العظيم من هو؟ وما أسماؤه؟ وما صفاته؟ وكيف يعبده عبادُه حقَّ عبادته؟ وكيف يقدُرُه عبادُه حقَّ قدره؟

وخير من قام بهذه المهمة هم أولو العزم من الرُّسل، لذا سيتناول الباحث في هذا البحث مظاهر تعظيم الله في قصص هؤلاء الأنبياء ومن ثم التَّربية علىٰ الاقتداء بهم؛ لأنَّ الله أمرنا بالاقتداء بهم، فقال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

أسئلة البحث: السُّؤال الرَّئيس: ما مظاهر تعظيم الله في قصص أولي العزم من الرُّسل؟ وما كيفية الاستفادة منها في التَّربية؟

الأسئلة الفرعية:

١- ما مظاهر تعظيم الله في قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

٢- ما مظاهر تعظيم الله في قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

٣- ما مظاهر تعظيم الله في قصة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟
٤- ما مظاهر تعظيم الله في قصة عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟
٥- ما مظاهر تعظيم الله في قصة محمد ﷺ؟
٦- كيف نربي الناشئة علىٰ تعظيم الله في ضوء قصص أولي العزم من الرسل؟

أهداف البحث:

يستهدف هذا البحث التعرف علىٰ مظاهر تعظيم الله في قصص أولي العزم من الرُّسل وتربية الناشئة عليها. وذلك من خلال:

١- التعرف علىٰ مظاهر تعظيم الله في قصص أولي العزم من الرسل عليهم السلام.
٢- التعرف علىٰ الأسس التربوية الإسلامية التي ترسخ تعظيم الله في نفوس الناشئة من خلال قصص أولي العزم من الرسل عليهم السلام.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث النظرية في أنه يعالج موضوعا يعتبر من أهم الموضوعات التي تخص الفرد والمجتمع حيث إنها ترتبط بتوحيد الربوبية الذي هو مستلزم لتوحيد الألوهية، فلو اتبع الخلق الرُّسل في تعظيم الله، لما وقع الشرك، ولما حصل الفساد في الأرض من الظلم والكبر والحسد وغير ذلك من أنواع الفساد.

وأما أهمية هذا البحث من الناحية التطبيقية فإنه يساعد التربويين من معلمين وآباء وأمهات علىٰ تربية الجيل الصاعد علىٰ تعظيم الله في قلوبهم. وكذلك تضمين المناهج الدراسية مظاهر تعظيم الله تعالىٰ الواردة في قصص الأنبياء للاستفادة منها في تربية الناشئة.

حدود البحث:

بما أن قصص الأنبياء مليئة بمظاهر تعظيم سوف يقتصر الباحث علىٰ خمس مظاهر في قصّة كلِّ نبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

مصطلحات البحث:

مظاهر تعظيم الله:

يقصد الباحث بمظاهر تعظيم الله هي تلك المواقف التي تجعل الإنسان يعظم الله في قلبه، ويقدره حق قدره.

أولو العزم من الرُّسل:

قال ابن كثير: «وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي تَعْدَادِ أُولِي الْعَزْمِ عَلَىٰ أَقْوَالٍ، وَأَشْهَرُهَا أَنَّهُمْ: نُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَىٰ، وَعِيسَىٰ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ»[1]، فالذي عليه أكثر أهل العلم أنّهم نوحٌ وإبراهيمُ وموسىٰ وعيسىٰ ومحمَّدٌ ﷺ.

المنهجية العلمية للبحث: سيستخدم الباحث المنهج الاستنباطي بقصد استخلاص مظاهر تعظيم الله من القصص، ومن ثم توظيفها في مجال التربية الإسلامية.

الدراسات السابقة:

يستعرض الباحث هنا أهم الدراسات والبحوث ذات العلاقة بموضوع الدراسة الحالية والتي من أهمها:

- **دراسة سليمان عقاب مفضي الزعبي (٢٠١٥م) بعنوان: المنهج القرآني في تعظيم الله**

وهي عبارة عن رسالة دكتوراه في جامعة العلوم الإسلامية العالمية في الأردن في تخصص التفسير. وقد تناولت الدراسة تعظيم الله لذاته في كتابه، وتعظيم رسله صوات الله وسلامه عليهم له، ثم تناول تعظيم المؤمنين لله، وأخيرًا تعظيم الملائكة والجنّ وجميع المخلوقات لله. وقد استخدم الباحث المنهج الاستنباطي.

وتختلف الدراسة الحالية عن هذه الدراسة بأنها أوَّلًا تناولت المواقف التي تظهر فيها عظمة الله قصص أولي العزم من الرُّسل، لا أفعالهم التي يُعظِّمون فيها ربَّهم كما في هذه الدِّراسة، كما أنّها تتميز بتناول الجانب التَّربوي بخلاف هذه الدِّراسة.

- **دراسة مبارك بن مسلم بن مسعود الشعبني (٢٠٠٢م) بعنوان: المنهج القرآني في تربية اليقين بقدرة الله ودلالاته التربوية**

وهي عبارة عن رسالة لنيل درجة الماجستير من جامعة اليرموك –الأردن. وقد تناولت الدِّراسة تحليل تسع نماذج من قصص الأولياء والأنبياء، وقد حلَّل الباحث كلَّ أنموذج من خلال التَّصرف العملي الذي ظهر فيه هذا الأنموذج، والكيفية التي تمَّت بها تربية اليقين فيه، ودلائل انغراس اليقين الذي تم تربيته. وقد استخدم الباحث المنهج الاستنباطي.

وتختلف الدِّراسة الحالية عن هذه الدِّراسة بأنّها ليست مقصورة علىٰ اليقين، بل عموم تعظيم الله تعالىٰ، وأنها خاصَّة بأولي العزم من الرُّسل، وأنَّها تناولت الجانب التَّربوي العملي.

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٠٥)

المبحث الأول: مظاهر تعظيم الله في قصة نوح عليه السلام

بعث الله نبيه نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمَّا ظهر الشِّرك في الأرض وانتشر؛ وذلك ليعلق العباد بعبادة ربهم وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة الطاغوت قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف]، وفي قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عددٌ من مظاهر تعظيم الله تعالىٰ يذكر الباحث في هذه الورقة أهمها، وهي:

١- التأمل في أطوار خلق الإنسان

قال نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «لَا تَعْرِفُونَ لِلَّهِ حَقَّ عَظَمَتِهِ»(١).

ثمّ قال نوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح] أي: «والحالُ أنَّكم علىٰ حالٍ منافيةٍ لما أنتُم عليهِ بالكليةِ، وهيَ أنَّكم تعلمونَ أنَّه -تعالَىٰ- خلقَكُم تاراتٍ عناصرَ، ثم أغذيةً، ثم أخلاطًا، ثم نُطُفًا علَقًا، ثمّ مُضَغًا، ثمّ عظامًا ولحومًا، ثمّ أنشأكم خلقًا آخرَ، فإنَّ التقصيرَ في توقيرِ مَن هذه شؤونه في القدرةِ القاهرةِ والإحسانِ التامِّ مع العلمِ بها= مِمَّا لا يكادُ يصدُرُ عن العاقل»(٢).

«فتَطَوُّرَ الْخَلْقِ مِنْ طَوْرِ النُّطْفَةِ، إِلَىٰ طَوْرِ الْجَنِينِ، إِلَىٰ طَوْرِ خُرُوجِهِ طِفْلًا، إِلَىٰ طَوْرِ الصِّبَا، إِلَىٰ طَوْرِ بُلُوغِ الْأَشُدِّ، إِلَىٰ طَوْرِ الشَّيْخُوخَةِ، وَطُرُوِّ الْمَوْتِ علىٰ الْحَيَاة، وطروّ الْبِلَىٰ عَلَىٰ الْأَجْسَادِ بَعْدَ الْمَوْتِ= كُلُّ ذَلِكَ وَالذَّاتُ وَاحِدَةٌ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَىٰ تَمَكُّنِ الْخَالِقِ مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْخَلْقِ وَالتَّبْدِيلِ فِي الْأَطْوَارِ، وَهُمْ يُدْرِكُونَ ذَلِكَ بِأَدْنَىٰ الْتِفَاتِ الذِّهْنِ، فَكَانُوا مَحْقُوقِينَ بِأَنْ يَتَوَصَّلُوا بِهِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ عَظَمَةِ اللهِ، وَتَوَقُّعِ عِقَابِهِ؛ لِأَنَّ الدَّلَالَةَ عَلَىٰ ذَلِكَ قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهِمْ، وَهَلِ التَّصَرُّفُ فِيهِمْ بِالْعِقَابِ وَالْإِثَابَةِ إِلَّا دُونَ التَّصَرُّفِ فِيهِمْ بِالْكَوْنِ وَالْفَسَادِ»(٣).

فالإنسان يمتلك صفات عظيمة، ومزايا هائلة، تميزه عن سائر المخلوقات، فهو الوحيد الذي يمتلك نعمة العقل، وقد نفخ الله فيه من روحه، فالتفكر في أحواله وأطواره ومآلاته؛ وذلك عن طريق التطور التقني الذي أصبح يتيح للإنسان أن يتأمل في تفاصيل جسده الداخلية ووظيفة

---

(١) الدر المنثور (٨/ ٢٩٠).

(٢) تفسير أبي السعود (٩/ ٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٠٠).

كل عضو من أعضائه، وكيف يقوم هذا العضو الصغير المخلوق من لحم ودم بعمله بدقة متناهية كمًا وكيفًا وزمنًا، كل هذا يكفينا لندرك كيف أن هذا الإنسان مزود بجاهزية رائعة وعجيبة قال تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾[الذاريات]؛ فعندما يتأمل الإنسان في نفسه يدرك عظمة الله تعالىٰ، ويُعَظِّمه في قلبه، ويقدره حقَّ قدره، ولا يصرف العبادة إلَّا له، ولا يرجو إلَّا إيَّاه، ولا يستغيث إلَّا به، فهو الذي بيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله.

٢- التفكر في خلق السَّموات

قال نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾ [نوح]. إنَّ نوحًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ انتقل مِنَ التَّوْبِيخِ وَالتَّعْرِيضِ إِلَىٰ الِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهِمْ بِآثَارِ وُجُودِ اللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ، مِمَّا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الدَّلَائِلِ، إِلَىٰ مَا فِي الْعَالَمِ مِنْهَا، لِمَا عَلِمْتَ مِنْ إِيذَانِ قَوْلِهِ: ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾ [نوح] مِنْ تَذْكِيرٍ بِالنِّعْمَةِ وَإِقَامَةٍ لِلْحُجَّةِ، فَتَخَلَّصَ مِنْهُ لِذِكْرِ حُجَّةٍ أُخْرَىٰ، فَكَانَ قَدْ نَبَّهَهُمْ عَلَىٰ النَّظَرِ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوَّلًا؛ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ مَا يُحِسُّونَهُ وَيَشْعُرُونَ بِهِ، ثُمَّ عَلَىٰ النَّظَرِ فِي الْعَالَمِ وَمَا سُوِّيَ فِيهِ مِنَ الْعَجَائِبِ الشَّاهِدَةِ عَلَىٰ الْخَالِقِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ(١).

روىٰ البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الشُّعَب) بسند صحيح: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ -موقوفًا عليه- قَالَ: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ»(٢).

فالتفكُّر يُورِثُ العبدَ أنواعًا من العبودية لله تعالىٰ، ومنافع جمَّة في أمر دينه، قد تفوق بعض العبادات الظَّاهرة، وذلك أنَّ التَّفكُّر من العبادات القلبية، والعبادات القلبية أصل عبادات الجوارح، وباعثها.

والتَّفكُّر في عظمة خلق السَّموات السَّبع يدعو العبدَ إلىٰ زيادة الإيمان والطَّاعة، قال السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر -تعالىٰ- أنَّ في هذه المخلوقات العظيمة ﴿ءَايَٰتٞ﴾، أي: أدلَّةً علىٰ وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، ولكنها ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، أي: لمن لهم عقولٌ يُعْمِلُونها فيما خُلِقَتْ له، فعلىٰ حسب ما منَّ الله علىٰ عبده من العقل، ينتفع بالآيات، ويعرفها بعقله وفكره وتدبُّره»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٠٢).

(٢) البيهقي (١١٧).

(٣) السعدي (٧٨).

وَكَانَ سُفْيَان كثيرا مَا يتَمَثَّل:

إِذا الْمَرْء كَانَت لَهُ فكرة فَفِي كل شَيْء لَهُ عِبْرَة

قَالَ الْحسن رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف]، قَالَ: أمنعهم التفكر فِيهَا. وَقَالَ الْحسن: طول الفكرة دَلِيلٌ علىٰ طَرِيق الْجنَّة. وَقَالَ وهب: مَا طَالَتْ فكرة أحد قطُّ إِلَّا علم، وَمَا علم امْرُؤ قطّ إِلَّا عمل.

يقول الأشقر: فكلُّ المعلومات التي جاءت بها التَّحليلات العلمية النظرية والتجريبية والاكتشافات التي واكبتها= تؤكِّد أنَّ هذا الفضاء ليس بفراغ -كما كان يُعتقد من قبل- لكنه بناء محكم بنموذج فريد، آخذ في الاتِّساع إلىٰ أجل مُسمَّىٰ. والقرآن الكريم كان سباقًا في الخبر عن ذلك كلِّه في كثير من الآيات التي كقوله تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات].

فنحن نشاهد جزءًا من هذا البناء بالعين المجردة، أو بواسطة المجاهر الضخمة: فهذه كواكب، وهذه أقمار تدور حول الكواكب، وهذه نجوم (تعد بالبلايين) تتخلل السماء وتتلألأ في ظلمة الليل، والكل معلق في الفضاء، سابح في أفلاكه ومداراته، لكن متماسك بدون عمد فيما بينه بقوة وحكمة ربانية (قوة جاذبية وقوة طاردة وأخرىٰ لا يعلمها إلَّا الله). فلا اختلال ولا اضطراب في هذا التماسك بل هو بنيان متين وفريد. وهو صنع الله الذي أتقن كل شيء، والذي خلق فسوىٰ والذي قدر فهدىٰ[1].

فالتفكر في روعة الخالق -سبحانه وتعالىٰ- وعظمته في إبداعه لتلك المخلوقات، عن طريق زيارة الأماكن العلمية المتاح فيها استخدام ما يعرف بالقبة السماوية والتلسكوبات الفلكية لمشاهدة الأجرام السماوية من خلالها، واستثارة الذهن يورث العبد بتعظيم الخالق هذا الكون الذي يشاهد أجزاء إعجازية منه.

٣- اليقين والإيمان بالموت والبعث

قال نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [نوح] «أَعْقَبَ نُوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ استدلاله السَّابِقَ بِأَعْجَبِ مَا يَرَوْنَهُ مِنْ أَحْوَالِ مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ وَهُوَ حَالُ الْمَوْتِ وَالْإِقْبَارِ، وَمَهَّدَ لِذَلِكَ مَا يَتَقَدَّمُهُ مِنْ إِنْشَاءِ النَّاسِ. وَأَدْمَجَ فِي ذَلِكَ تَعْلِيمَهُمْ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ مِنْ عَنَاصِرِ الْأَرْضِ مِثْلَ النَّبَاتِ وَإِعْلَامَهُمْ بِأَنَّ بَعْدَ الْمَوْتِ حَيَاةً أُخْرَىٰ. وَأُطْلِقَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ:

(١) السماء بناء وزينة لإدريس الأشقر.

أَنْشَأَكُمْ، فِعْلُ أَنْبَتَكُمْ لِلْمُشَابَهَةِ بَيْنَ إِنْشَاءِ الْإِنْسَانِ وَإِنْبَاتِ النَّبَاتِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ كِلَيْهِمَا تَكْوِينٌ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، أَيْ: أَنْشَأَهَا، وَكَمَا يَقُولُونَ: زَرَعَكَ اللهُ لِلْخَيْرِ، وَيَزِيدُ وَجْهَ الشَّبَهِ هُنَا قُرْبًا مِنْ حَيْثُ إِنَّ إِنْشَاءَ الْإِنْسَانِ مُرَكَّبٌ مِنْ عَنَاصِرِ الْأَرْضِ، وَقِيلَ التَّقْدِيرُ: أَنْبَتَ أَصْلَكُمْ، أَيْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]»[(١)].

فالتفكر والإيمان بالموت وبالبعث بعد النشور هو الموجه الحقيقي لسلوك الإنسان فكلما زاد إيمان الإنسان بالبعث والجزاء كلما عظم خوفه من الله وزادت خشيته له، فليس هناك أي قانون من قوانين البشر يستطع أن يجعل سلوك الإنسان سلوكا سويا مستقيما كما يصنعه الإيمان بالبعث والجزاء، لذا نجد نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكَّرهم بهذه الحقيقة العظيمة والتي يدلّ عليه دلائل كثيرة كالنشأة الأولىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس]، وممَّا يدلّ علىٰ هذه الحقيقة ما ذكرهم به نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ من قدرة الله الباهرة المتجلية في خلق السموات والأرض، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف].

٤- التفكر في خلق الأرض

قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطبًا قومَه بعدما ذكر لهم آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق والمعاد: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح] «فهذا اسْتِدْلَالٌ وَامْتِنَانٌ، وَلِذَلِكَ عُلِّقَ بِفِعْلِ جَعَلَ مَجْرُورٌ بِلَامِ التَّعْلِيلِ وَهُوَ ﴿لَكُمُ﴾ أَيْ لِأَجْلِكُمْ. وَالْبِسَاطُ: مَا يُفْرَشُ لِلنَّوْمِ عَلَيْهِ وَالْجُلُوسِ مِنْ ثَوْبٍ أَوْ زُرْبِيَّةٍ، فَالْإِخْبَارُ عَنِ الْأَرْضِ بِبِسَاطٍ تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ، أَيْ: كَالْبِسَاطِ، وَوَجْهُ الشَّبَهِ تَنَاسُبُ سَطْحِ الْأَرْضِ فِي تَعَادُلِ أَجْزَائِهِ بِحَيْثُ لَا يُوجِعُ أَرْجُلَ الْمَاشِينَ وَلَا يُقِضُّ جُنُوبَ الْمُضْطَجِعِينَ»[(٢)].

فإذا نظر الإنسان إلىٰ الأرض، وكيف خُلقت، رآها من أعظم آيات فاطرها ومبدعها. خلقها الله عزَّ وجلَّ فراشًا ومهادًا، وذللها لعباده، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم، وأرساها بالجبال، وجعلها أوتادًا تحفظها لئلا تميد بهم.

---

(١) التحرير (٢٩/ ٢٠٤).

(٢) التحرير (٢٩/ ٢٠٥).

ووسع سبحانه أكنافها، ودحاها، ومدها، وبسطها، وجعلها كفاتًا للأحياء تضمهم علىٰ ظهرها ما داموا أحياء، وكفاتًا للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء، وبطنها وطن للأموات كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦﴾ [المرسلات]، وقد أكثر تعالىٰ في كتابه من ذكر الأرض ودعا عباده إلىٰ النظر إليها والتفكر في خلقها ولولا أن هذا من أعظم آياته الدالة علىٰ عظمة لما نبه عليه عباده وهداهم إلىٰ التفكير فيه[١].

٥- الثقة بالله وكلاءته

قال تعالىٰ: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١﴾ [يونس] ففي الآية تحدىٰ نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قومه بأن يجتمعوا هم وشركاؤهم الذين يزعمون أنهم ينصرونهم في الشَّدائد، ويفعلوا به ما بدا لهم، وأن لا يؤخرونه حتىٰ يأتي بشيء من سلاح وغيره يحمي به نفسه. كلّ ذلك بسبب توكله وصدقه في الاعتماد علىٰ ربِّه وثقته بوعده وقدرته، وكلاءته، فكانت النتيجة أنَّ قومه علىٰ كثرتهم لم يستطيعوا أن يضروه بشيء، بل كان الوبال والضَّرر، والغرق هو مصيرهم، قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»[٢].

فمَنْ حَفِظَ حُدودَ الله، وراعىٰ حقوقه، وجد الله معه في كُلِّ أحواله حيث توجَّه يَحُوطُهُ وينصرهُ ويحفَظه ويوفِّقُه ويُسدده فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]، قال قتادة: من يتق الله يكن معه، ومن يكن الله معه، فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل[٣]

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٦) بتصرف.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٤٧).

المبحث الثاني: مظاهر تعظيم الله في قصة إبراهيم عليه السلام

إنَّ نبيَّ الله إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أبو الأنبياء، وإمام الحنفاء، لذا قال الله تعالىٰ فيه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[النحل]، والأُمَّة هو الجامع لخصال الخير، القدوة التي يقتدىٰ بها في الخير والصَّلاح، وقد ضرب لنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أروع الأمثلة في تعظيم الله، وتعظيم أمره ونهيه، ففي قصته من المظاهر العظيمة، والعبر الباهرة، ما تحتار معه العقول، وسيذكر الباحث شيئًا من هذه المظاهر التي تتجلَّىٰ فيها عظمة الله وقوته وجبروته، وهي ما يلي:

١- التوصل إلىٰ تعظيم الله عن طريق استخدام الأسلوب المنطقي العلمي في التفكير

إنَّ التفكير المنطقي يقوم علىٰ خطوات، بدءًا بالشُّعور بالمشكلة ومِن ثَمَّ جمع الأدلة للتعرف علىٰ مدىٰ صحَّتها، ورفض الخاطئ منها، والإبقاء علىٰ الصَّحيح، وأخيرًا التَّوصل للنتائج، ويتجلَّىٰ هذا الأسلوب في حوار إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأنعام]. هكذا واجه إبراهيم قومه عبدة الكواكب التي تمثلها أصنام منحوتة، واجههم بالحُجّة العقلية المنطقية، حتىٰ توصل معهم إلىٰ الحقيقة التي أراد أن يصل إليها معهم، وهي إبطال عبادة غير الله تعالىٰ فقال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ لا كما توجهون أنتم وجوهكم لأصنام نحتموها بأيديكم، وعبدتموها بأهوائكم لا بأمر ربكم، وأعلن براءته في وضوح وصراحة، فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

فاستخدام الأسلوب المنطقي في التفكير يجعل الإنسان يدرك عظمة هذا الخالق، وأن جميع الخلق مآلهم إلىٰ الفناء في هذه الحياة الدُّنيا سوىٰ الحي القيُّوم، فهو الأوَّل الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[الرحمن].

---

(١) أيسر التفاسير (٢/ ٨١).

٢- كمال التوكل علىٰ الله

إنَّ نبيَّ الله إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان صادقًا تقيًّا نقيًّا مخلصًا، قد امتلأ قلبه يقينًا وإيمانًا بالله تعالىٰ، لذا لمَّا اجتمع عليه قومه بعد أن أعيتهم الحُجَّة، ولم يجدوا لها جوابًا بالمنطق والإقناع= لجأوا إلىٰ القوَّة، فقالوا: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء]، ظهر هنا كمال التوكل والاعتماد علىٰ الله، فقال كلمةً خرجت من قلب معظِّم لله، قد امتلأ من محبة الله، وخوفه ورجائه، ألا وهي: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

وكفىٰ بربِّك وكيلًا، وكفىٰ به نصيرًا، فكانت النتيجة بعد أن جمعوا من الحطب الكمّ الكبير، حتَّىٰ إنَّ الرَّجل ليمرض فيوصي بكذا وكذا من ماله، فيشتري به حطبًا، فيلقىٰ في النَّار، وحتَّىٰ إنَّ المرأة لتغزل، فتشتري به حطبًا، فتلقيه في النَّار، حتَّىٰ بلغوا من ذلك ما أرادوا، فلمَّا أرادوا أن يلقوا إبراهيم، ولم يدروا كيف يلقونه من شِدَّة حرِّها وعِظَمها، فجاء إبليسُ فدلَّهم علىٰ المنجنيق[١].

فكانت النتيجة أن قال الله سبحانه وتعالىٰ للنَّار تعجيزًا لهم ولأصنامهم، وعنايةً بمن أرسله، وتصديقًا له في إنجاء مَن آمن به: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الأنبياء: ٦٩]، أي: باردة علىٰ إبراهيم، مع كونك محرقة للحطب، ﴿وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: ولا تنتهي في البرد إلىٰ حيثُ يهلكه، بل كوني غير ضارَّة. ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء]، غالبوه بالجدال فغلّبه الله، ولقنه بالمبكّت[٢]، وفزعوا إلىٰ القوَّة والجبروت، فنصره وقوّاه.

كل هذا حصل بكلمة واحدة، دلَّت علىٰ كمال التَّوكل علىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ-، بل جاء في بعض الرِّوايات: أنَّ جبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: يا ربِّ، عبدك إبراهيم يُحْرَق فيك، قال الله تعالىٰ: إِنِ استغاثَ بك فأَغِثْهُ. فأتاه جبريلُ وهو يهوي نحو النَّار، فقال: أتطلب النَّجاة؟ فقال: أمَّا منك فلا، قال: أفلا تسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن ينجِّيك منها؟ فقال إبراهيمُ: حسبي من سؤالي عِلْمُه بحالي[٣].

انظر إلىٰ كمال إيمانه وقوة توكله علىٰ الله، حتَّىٰ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، مع أنَّه مرسلٌ من ربِّه لم يستنجد به، لذا أصبح إبراهيم إمام الحنفاء لكمال التَّوحيد في قلبه، وشِدَّة تعلُّقِه بربِّه تعالىٰ.

---

(١) التفسير الوسيط (٣/ ٢٤٣) بتصرف

(٢) تفسير القاسمي (٧/ ٢٠٤).

(٣) تفسير السمرقندي (٢/ ٤٣٢).

٣-اللجوء إلىٰ الله ودعائه عند ورود الشرور

روىٰ الإمام أحمدُ من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: وَدَخَلَ إِبْرَاهِيمُ قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ، أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ: دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ اللَّيْلَةَ بِامْرَأَةٍ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ أَوِ الْجَبَّارُ مَنْ هَذِهِ مَعَكَ؟ قَالَ: أُخْتِي، قَالَ: أَرْسِلْ بِهَا، قَالَ: فَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ، وَقَالَ لَهَا: لَا تُكَذِّبِي قَوْلِي، فَإِنِّي قَدْ أَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي، إِنْ عَلَىٰ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ»، قَالَ: فَلَمَّا دَخَلَتْ إِلَيْهِ قَامَ إِلَيْهَا، قَالَ: فَأَقْبَلَتْ تَوَضَّأُ، وَتُصَلِّي، وَتَقُولُ: اللهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَىٰ زَوْجِي، فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ»، قَالَ: فَغُطَّ حَتَّىٰ رَكَضَ بِرِجْلِهِ، -قَالَ أَبُو الزِّنَادِ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ-: اللهُمَّ، إِنَّهُ إِنْ يَمُتْ يُقَلْ هِيَ قَتَلَتْهُ، قَالَ: فَأُرْسِلَ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا فَقَامَتْ تَوَضَّأُ، وَتُصَلِّي، وَتَقُولُ: اللهُمَّ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي آمَنْتُ بِكَ وبرسولك وأحصنت فَرْجِي إِلَّا عَلَىٰ زَوْجِي، فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ، قَالَ: فَغُطَّ حَتَّىٰ رَكَضَ بِرِجْلِهِ. -قَالَ أَبُو الزِّنَادِ: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ-: اللهُمَّ إِنَّهُ إِنْ يَمُتْ يُقَلْ هِيَ قَتَلَتْهُ، قَالَ: فَأُرْسِلَ، فَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ: مَا أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلَّا شَيْطَانًا، ارْجِعُوهَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَأَعْطُوهَا هَاجَرَ، قَالَ: فَرَجَعَتْ، فَقَالَتْ لِإِبْرَاهِيمَ: أَشَعَرْتَ أَنَّ اللهَ -تعالىٰ- رَدَّ كَيْدَ الْكَافِرِ، وَأَخْدَمَ وَلِيدَةً؟[1].

فيظهر في هذه القصة لجوء زوجة إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ إلىٰ ربِّهما الذي بيده ملكوت السَّموات، وذلك بعبادتين عظيمتين تعتبران من أعظم العبادات ألا وهما الدُّعاء والصَّلاة، فكانت النتيجة أن حمىٰ الله زوجته سارة، بل حصل لها الإكرام بأن أهدىٰ لها الملك جاريةً أصبحت أُمًّا لنبيٍّ من الأنبياء وهو إسماعيل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، بل أصبحت أُمًّا لأفضل الأنبياء وهو نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، كلُّ ذلك بسبب اللجوء إلىٰ الله، وصدق اعتماد القلب عليه، فإنَّه يقلب المخاوف إلىٰ أمن وأمان، ويقلب الأحزان إلىٰ فرح وامتنان، فالمؤمن إذا ضاقت به الضوائق، وتجمعت عليه الكروب؛ فعليه باللجوء إلىٰ الرَّبِّ العظيم، الرَّحيم الكريم، فإنَّه رحم المشركين لما صدقوا في اللجوء إليه لكشف كربة من كربات الدُّنيا وهي والغرق، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت]، فالمؤمن أولىٰ بالنَّجاة إذا صدق مع الله -تعالىٰ- في صلاته ودعائه. وهذا إن دلَّ علىٰ شيء؛ فإنّما يدلّ علىٰ تعظيم الله في القلب؛ لذلك كان النَّبيُّ ﷺ إذا حزبه أمرٌ؛

(١) أخرجه أحمد (١٥/ ١٣٢-١٣٣).

فَزِع إلىٰ الصَّلاة[١]، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة].

٤-تعظيم أوامر الله وعدم التردد في تنفيذها

إنَّ الإنسان كلَّما عظَّم الله في قلبه كلَّما عَظُمَت أوامرُه، وبادر في تنفيذها، وأخذها بقوَّة، فإن العمل له شرطا كمال، وهما المسارعة في تنفيذه، كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران]، والآخر: الأخذ بقوَّة وعزيمة وعدم التَّلاعب والتقاعس والاستهزاء بأوامر الله، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ ﴾[مريم]، قال ابن كثير: «أَيْ: بِجِدٍّ وَحِرْصٍ وَاجْتِهَادٍ»[٢].

وقد ضرب نبي الله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أروع الأمثلة في تعظيم أوامر الله تعالىٰ، حيث ابتلاه الله -سبحانه وتعالىٰ- بقتل ابنه بعد ما تمكَّن حبُّه من قلبه، مع كونه ابنه الوحيد، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الصافات]، فقد سارع إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ تلبية أمر ربه ولم يتردد في ذلك، مع صعوبة مثل هذا الأمر علىٰ النفس البشرية، فلم يحاجّ ربَّه في هذا الأمر، بل قال: سمعنا وأطعنا، ونرىٰ إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو الآخر سلَّم أمرَه لله بعد ما علم أنَّ هذا أمره، وسأل الله أن يرزقه الصَّبر؛ لأنَّ المؤمن الحقَّ هو الذي لا يعترض علىٰ أمر الله، بل يستسلم له، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

فكانت النتيجة لهذا التَّسليم التَّامّ أن أبقىٰ الله إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وحفظه وفداه بذبح عظيم، بل جعله نبيًّا من الأنبياء، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم]، وأصبح إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ خليل الرحمن؛ لأنَّ مرتبة الخُلّة لا تقبل المشاركة والمزاحمة، فهي أعلىٰ أنواع المحبة، فقد خلا قلبُ إبراهيم من التَّعلق بغير الله، حتَّىٰ ابنه قدَّمه لله محبةً له، وطاعةً لأمره، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾ [النساء: ١٢٥]،

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣١٩).

(٢) التفسير (٥/ ٢١٦).

ومن نتائج كمال التسليم لأمر الله أن أغدق الله علىٰ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فرزقه بولد آخر وهو إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بل بارك الله فيه وفي ذريته وجعل النبوة في ذريته.

٥-الإيمان بقدرة الله الشاملة

تتجلَّىٰ قدرة الله الشَّاملة في مناظرة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للنَّمرود، كما ذكر الله قصته في (سورة البقرة) بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾، «ثمَّ تَأمل مَا فِي ضمن هَذِه المناظرة من حسن الِاسْتِدْلَال بأفعال الرب المشهودة المحسوسة الَّتِي تَسْتَلْزِم وجوده، وَكَمَال قدرته ومشيئته وَعلمه ووحدانيته من الْإِحْيَاء والإماتة المشهودين الَّذين لَا يقدر عَلَيْهِمَا إِلَّا الله وَحده، وإتيانه -تَعَالَىٰ- بالشَّمس من الْمشرق لَا يقدر أحدٌ سواهُ علىٰ ذَلِك، وَهَذَا برهَانٌ لَا يقبل الْمُعَارضَة بِوَجْهٍ، وَالدَّلِيل الثَّانِي مُكَمل لِمَعْنىٰ الدَّلِيل الأول، ومُبيِّنٌ لَهُ، ومُقَرِّرٌ لتضمن الدَّلِيلَيْنِ أفعال الرَّبِّ الدَّالَّة عَلَيْهِ، وعَلىٰ وحدانيته، وانفراده بالرُّبوبية والإلهية، كَمَا لَا تقدر أنت وَلَا غير الله علىٰ مثلهَا. وَلمَّا علم عَدوُّ الله صِحَة ذَلِك، وأنَّ مَن هَذَا شَأْنه علىٰ كلِّ شَيْء قدير لَا يعجزه شَيْءٌ وَلَا يستصعب عَلَيْهِ مُرَادٌ= خَافَ أَن يَقُول لإِبْرَاهِيم: فسَلْ رَبَّك أَن يَأْتِي بهَا من مغْرِبهَا، فيفعل ذَلِك فَيظْهر لأتباعه بطلَان دَعْوَاهُ وَكذبه، وأنه لَا يصلح للرُّبوبية فبُهِتَ وأمسك»[1].

فالقصة تدلُّ دلالةً واضحةً علىٰ قدرة الله -تعالىٰ- وعظمته، كما أنّها حكت للنَّاس لونًا من ألوان رعاية الله لأوليائه، وخذلانه لأعدائه.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٠٥).

المبحث الثالث: مظاهر تعظيم الله في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

لقد اصطفىٰ الله موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ أهل زمانه قال تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف]، وجعل الله في قصته من العبر والفوائد الشيء الكثير وسيذكر الباحث في هذا المبحث أهم مظاهر تعظيم الله تعالىٰ في قصته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

١-صدق وعد الله تعالىٰ

كان من شأن فرعون أنَّه رأىٰ في منامه أنَّ نارًا أقبلت من بيت المقدس، حتَّىٰ اشتملت علىٰ بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، وأخربت بيوت مصر. فدعا السَّحرة والكهنة والعافَّة والقافَّة والحازَّة، فسألهم عن رؤياه، فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه -يعنون بيت المقدس- رجلٌ يكون علىٰ وجهه هلاك مصر. فأمر ببني إسرائيل ألَّا يولد لهم غلامٌ إلَّا ذبحوه، ولا تولد لهم جاريةٌ إلَّا تُرِكَت، فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولودٌ إلَّا ذُبِح، فلا يكبر الصَّغير.

وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت، فأسرع فيهم، فدخل رؤوس القبط علىٰ فرعون، فكلَّموه، فقالوا: إنَّ هؤلاء قد وقع فيهم الموت، فيوشك أن يقع العمل علىٰ غلماننا! بذبح أبنائهم، فلا تبلغ الصِّغار وتفنىٰ الكبار! فلو أنَّك كنتَ تبقي من أولادهم! فأمر أن يُذبحوا سُنةً ويُتْرَكُوا سنةً. فلمَّا كان في السَّنة التي لا يُذبحون فيها وُلِد هارونُ، فتُرِك، فلمَّا كان في السَّنة التي يذبحون فيها حملت بموسىٰ.

وُلِدَ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا الوقت العصيب الذي يكون الموتُ فيه متوقَّعًا في أيِّ لحظة، باتت الأمُ خائفةً، عينها حائرة، قلقةً مذعورةً، قلبُها يرتجف، تترقب يمنةً ويسرةً لا حولَ لها ولا قُوَّة في حماية هذا الطِّفل الصَّغير أمام هذا الطَّاغية المتكبر، وهنا يأتي الوعدُ من أصدق القائلين، والبِشارة من أرحم الرَّاحمين، فيوحي إلهامًا إلىٰ أمِّه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص].

فجمع الله في هذه الآية خبرين وأمرين ونهيين وبشارتين، فالأمران هما: أَرْضِعِيهِ وَ (أَلْقِيهِ)، والنهيان: ولا تَخافِي وَلَا تَحْزَنِي، لأنه برعاية من بيده ملكوت كل شيء والبشارتان: إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلوه من الْمرسلين[1].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٧٤) بتصرف

وهذا من أعظم البشائر الجليلة، وتقديم هذه البشارة لأم موسىٰ، ليطمئن قلبها، ويسكن روعها فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، فألقته في اليم ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾[القصص:٨] ألقته هربًا من آل فرعون، فذهب به إلىٰ آل فرعون، ما القضية؟ وما الوعد؟ نعم، وعد الله بدأ يتحقَّق عند ما ألقىٰ في قلب امرأة فرعون محبَّة هذا الطفل ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص]. ولمَّا فقدت موسىٰ أمُّه، حزنت حزنًا شديدًا، وأصبح فؤادها فارغًا من القلق الذي أزعجها، علىٰ مقتضىٰ الحالة البشرية، مع أنَّ الله -تعالىٰ- نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها بردِّه: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: بما في قلبها ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فثبتناها، فصبرت، ولم تبد به. ﴿لِتَكُونَ﴾ بذلك الصبر والثبات ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ أي: المُصدِّقين بوعدِ الله -تعالىٰ- أو من الواثقينَ بحفظِه، فإنَّ العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودلَّ ذلك علىٰ أنَّ استمرار الجزع مع العبد، دليلٌ علىٰ ضعف إيمانه.

وقالت أمُّ موسىٰ لأخته: قُصِّي الأثرَ عن أخيك، وابحثي عنه من غير أن يحسَّ بك أحدٌ، أو يشعروا بمقصدك. فذهبت تقصُّه، فأبصرتْه علىٰ وجهٍ، كأنَّها مارَّة لا قصدَ لها فيه.

ومن لطف الله بموسىٰ وأمه: أن منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلىٰ السُّوق رحمةً به، ولعلَّ أحدًا يطلبه، فجاءت أختُه، وهو بتلك الحال، ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]. وهذا جُلُّ غرضهم، فإنّهم أحبُّوه حبًّا شديدًا، وقد منعه الله من المراضع، فخافوا أن يموت، فلمَّا قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة علىٰ التّرغيب في أهل هذا البيت بتمام حفظه وكفالته والنُّصح له= بادروا إلىٰ إجابتها، فأعلمتهم ودلَّتهم علىٰ أهل هذا البيت، ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ كما وعدناها بذلك ﴿كَىْ نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ بحيثُ إنَّه تربَّىٰ عندها علىٰ وجهٍ تكون فيه آمنةً مطمئنةً، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة علىٰ ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فأريناها بعض ما وعدناها به عيانًا، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنَّه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [القصص] فإذا رأوا السَّبب متشوشًا، شوَّش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل أنَّ الله -تعالىٰ- يجعل المحن الشَّاقَّة والعقبات الشَّاقَّة، بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة[1].

---

(١) تفسير السّعدي (٦١٢) بتصرف.

٢-الإيمان بخلق الله لكل شيء وهدايته

لمَّا بدأ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دعوتَه، ولقي فرعون ودعاه إلىٰ توحيد الله وعبادته؛ قال فرعون له: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، فأجاب موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ أي: ربُّنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطىٰ كلّ مخلوق خلقَه اللائق به، الدَّالَّ علىٰ حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] كلّ مخلوق إلىٰ ما خلقه له، وهذه الهداية العامّة المشاهدة في جميع المخلوقات، فكلّ مخلوق تجده يسعىٰ لما خُلِق له من المنافع، وفي دفع المضارِّ عنه، حتَّىٰ إنَّ الله -تعالىٰ- أعطىٰ الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به علىٰ ذلك. فالذي خلق المخلوقات، وأعطاها خلقها الحسن، الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها، هو الرَّبُّ علىٰ الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودًا، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قُدِّر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لربِّ العالمين أكبر من ذلك، ولهذا لمَّا لم يمكن فرعونُ أن يعاند هذا الدَّليل القاطع، عدل إلىٰ المشاغبة، وحادّ عن المقصود فقال لموسىٰ: ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١][(١)].

إنَّ المتأمل في الكون يجد كمًّا هائلًا من المشاهد التي تدلّ علىٰ هداية الله -تعالىٰ- لما يزيد عن (مليون) نوع من الكائنات الحية، متنوعة الصفات والخصائص والوظائف والتّراكيب والأشكال والألوان؛ كي تؤدِّي دورها ووظيفتها في الحياة علىٰ الوجه الأنسب والأفضل دومًا.

فمن الذي (هدىٰ) البعوضة لقوانين (أرشميدس) في الطفو، فنجدها تزوّد كلّ بيضة من بيوضها بكيسين من الهواء كي تطفو بهما علي سطح الماء؟[(٢)]

كما يوجد ما يزيد عن ثمانية آلاف نوع من الطيور، فهل تعلِّم أفراخَها الطَّيران أم إنَّ هذه الخاصية (هداية) من الله تعالىٰ؟ أجري باحثون ألمان تجربة للإجابة عن مثل هذا السُّؤال، حيث وضعوا صغار الحمام حديثَ الفقس في أنابيب ضيق بحيثُ لا تستطيع تحريك أجنحتها، وعند بلوغها سِنًّا معينة قاموا بإطلاقها فطارت علىٰ الفور[(٣)].

---

(١) تفسير السعدي (٥٠٦).

(٢) د. مصطفي محمود (لغز الحياة: ٤٤).

(٣) د. صبري القباني (غرائب في مملكة الحيوان: ٢٢٢-٢٢٣).

والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة جدًّا ففي الكائنات الحيَّة التي تفعل الشَّيء الصَّواب في الوقت والمكان المناسب، وبالطريقة والنسق المناسبة= دلالة واضحة علىٰ الهداية الرَّبانية التي تدلّ علىٰ عظمة هذا الخالق، وبديع صنعه، ليس كما يقوله البعض بأنَّ هذه الأمور حصلت بدافع من سنن وقوانين وغريزة طبيعية، بل هي قدرة ربانية كما قال تعالىٰ علىٰ لسان موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠](١).

٣-سجود السَّحرة تعظيمًا لله

جمع فرعون السَّحرة ليغلبوا موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فبدأ التَّحدي بين موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وسحرة فرعون، فألقىٰ السَّحرة حبالهم وعصيهم في السَّاحة وانقلبت بالتَّمويه السِّحري حيّات وثعابين، ورهب النَّاس من الموقف، وظنَّ فرعونُ وملأه أنّهم غالبون، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ أن يلقي عصاه، فألقاها: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] أي تأخذه وتبتلعه، وبذلك وقع الحقُّ، أي: ظهر وثبت واستقرَّ ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾ [الأعراف] بعد ما شاهدوا الآية الكبرىٰ الدَّالَّة علىٰ عظمة الله وقدرته، فخرُّوا ساجدين كأنَّما ألقاهم أحدٌ علىٰ وجه الأرض لا حراك لهم وهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف] إنَّه نور الحقِّ في المشاعر، ولمسة الحقِّ للقلوب المهيأة لتلقي الحقَّ والنُّورَ واليقين(٢).

ففي هذا الموقف مظهر عظيم من مظاهر تعظيم الله فلم يقل: (سجدوا)، بل قال: (ألقي) ليدلَّ علىٰ أنَّ خرورهم كان لا إراديًّا لعظمة الأمر الذي رأوه، فملأ الإيمانُ قلوبهم، وتغلل في نفوسهم بسبب ما رأوه من قدرة الله وقوَّته العظيمة، فهدَّدهم فرعونُ بالقتل والصَّلب، ولكن النَّفس البشرية حين تستقرّ فيها حقيقة الإيمان تتجاوز جميع العقبات، وتقدم في سبيل الإيمان والعقيدة كلَّ التَّضحيات، وتحتقر الدُّنيا الفانية إلىٰ جوار الآخرة الباقية. إنّها لا تقف لتسأل: ماذا ستلقىٰ في الطَّريق من عذاب وصعاب؟ لذا قال السَّحرةُ: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾ [طه].

٤-تجلِّي الرَّبِّ للجبل

لمَّا جاء موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لميقات ربِّه وكلَّمه بكلام شرح صدره، وأنار قلبه، اشتاقت روحُه بعد ذلك لرؤيته، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ

---

(١) صور من دلائل الهداية الربانية للكائنات الحية، أ.د. ناصر أحمد سنه.

(٢) أيسر التفاسير بتصرف.

ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وهنا في موقف موسىٰ وحواره مع الله؛ تظهر لنا عظمة الله -سبحانه وتعالىٰ- حيثُ إنَّ الجبل العظيم الصَّلب اندكَّ، وأصبح ترابًا لمَّا تجلَّىٰ له ربُّه بقدر الخنصر، وسقط موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من هول ما رأىٰ من النُّور الذي حصل به التَّجلِّي مغشيًا عليه، كمن أخذته الصَّاعقة، فالصَّعق يحصل من شدَّة الهيبة والعظمة والجلال، لذا؛ النَّاسُ في عرصات القيامة يُصعقون عندما يتجلَّىٰ لهم الرَّبُّ[(١)].

٥-انفلاق البحر لموسىٰ

في آخر قصة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون خرج موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه من بلد فرعون بأمر الله، ولكن الظَّالم لم يكتف بالخروج، بل أخذ بملاحقة المؤمنين، فلمَّا تراءىٰ الجمعان جمع موسىٰ وجمع فرعون، وتقاربا بحيثُ رأىٰ بعضهما بعضًا؛ خاف قومُ موسىٰ لمَّا رأوا جيوشَ فرعون تتقدم نحوهم، وصاحوا: إنَّا لمدركون. فطمأنهم موسىٰ ثقةً بوعد الله بقوله: كلا، لن تدركوا، إنَّ معي ربي سيهدين إلىٰ طريق نجاتي، فأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ أنِ اضرب بعصاك البحر. فضرب امتثالًا لأمر ربِّه؛ فانفلق البحر، فكان كلُّ فرق كالجبل العظيم، فجاوز موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومُه البحرَ، خاف فرعونُ عاقبةَ الأمر، ولم يدر ماذا يصنع؟ أيرجع؟ وفي رجوعه الفشل الذَّريع، أم يبقىٰ؟ وما فائدة البقاء؟ أم يسير في البحر وهو لا يأمن الغرق؟ إنَّه يعلم أنَّ الأمر معجزة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لكن هل بإمكانه أن يظهر ذلك لقومه، وهو يقول: أنا ربّكم الأعلىٰ؟

وأخيرًا؛ قاده غروره إلىٰ أن يقول لقومه: إنَّ انفلاق البحر معجزة لي، ولمَّا علم بأنّي قاصدٌ صوبه، انجاب إجلالًا لكبريائي، فتبعهم في البحر فكانت النتيجة أن أغرقه الله ليكون آيةً واضحةً بارزةً لربوبية الله وألوهيته وقدرته وعلمه ورحمته، وهي عبرة وعِظة أيضًا للمعتبرين[(٢)].

---

(١) البداية والنهاية (٢/ ٢٠٥).

(٢) أيسر التفاسير (٣/ ٦٥٣) بتصرف.

المبحث الرابع: مظاهر تعظيم الله في قصة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

في مجتمع مليء بالمعاصي والفسق والفجور، بعث الله -تبارك وتعالىٰ- عيسىٰ عليه صلوات الله وسلامه؛ ليخرج النَّاسَ من الظُّلمات إلىٰ النُّور، وجعل في سيرته من الآيات والمعجزات ما تنبهر منها العقول، وسيذكر الباحثُ في هذه الورقة شيئًا من مظاهر تعظيم الله -سبحانه وتعالىٰ-، وهي كما يلي:

١- خلق عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بلا أب

تعتبر ولادة المسيح عيسىٰ بن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ معجزة إلهية، حيث ولد بلا أب، ليجعل ذلك آية للناس دالة علىٰ كمال قدرته، وأنه يخلق ما يشاء كيف يشاء، إن شاء خلقه من أنثىٰ بدون ذكر كما فعل بعيسىٰ وإن شاء خلقه من ذكر بدون أنثىٰ كما فعل بحواء كما نص علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، أي: خلق من تلك النَّفس التي هي آدم زوجَها حواء، وإن شاء خلقه بدون الذَّكر والأنثىٰ معًا كما فعل بآدم، وإن شاء خلقه من ذكر وأنثىٰ كما فعل بسائر بني آدم [(١)].

أرسل الله جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ مريم فنفخ في جيب درعها، فولجت النَّفخة الزَّكية من الملك الزَّكي، فأنشأ الله بها روحًا زكية، وهي بالكلمة، فصار عيسىٰ، ولجت النَّفخة في الفرج، فحملت بإذن الله، وكان عيسىٰ روحٌ من الله، فخلقُ اللهِ لعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من غير أب آيةٌ من آيات الله الدَّالَّةِ علىٰ تفرُّد الله بالخلق والتَّدبير، وأنَّ جميع الأسباب طوع مشيئته، وتبع لإرادته فقد خلقه بكلمة وهي (كن).

وفي هذه الكلمة تَعْبِيرٌ عَنْ تَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ بِتَكْوِينِهِ حَيًّا ذَا رُوحٍ لِيَعْلَمَ السَّامِعُونَ أَنَّ التكوين لَيْسَ بصنع يَدٍ، وَلَا نَحْتٍ بِآلَةٍ، وَلَكِنَّهُ بِإِرَادَةٍ وَتَعَلُّقِ قُدْرَةٍ وَتَسْخِيرِ الْكَائِنَاتِ الَّتِي لَهَا أَثَرٌ فِي تَكْوِينِ الْمُرَادِ، حَتَّىٰ تَلْتَئِمَ وَتَنْدَفِعَ إِلَىٰ إِظْهَارِ الْمُكَوَّنِ وَكُلُّ ذَلِكَ عَنْ تَوَجُّهِ الْإِرَادَةِ بِالتَّنْجِيزِ، فَبِتِلْكَ الْكَلِمَةِ كَانَ آدَمُ أَيْضًا كَلِمَةً مِنَ اللهِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يُوصَفْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَقَعِ احْتِيَاجٌ إِلَىٰ ذَلِكَ لِفَوَاتِ زَمَانِهِ. وَإِنَّمَا قَالَ: فَيَكُونُ وَلَمْ يقل فَكَانَ لاستحضار صُورَةَ تَكَوُّنِهِ، وَلَا يُحْمَلُ الْمُضَارِعُ فِي مِثْلِ هَذَا إِلَّا عَلَىٰ هَذَا الْمَعْنَىٰ [(٢)].

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٦٤).

ففي خلق عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبرة لمن اعتبر، وآية لمن تفكر، قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، وقَالَ تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ببساطة، ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، وهذا يدلّ علىٰ كمال قدرة الله تعالىٰ، وعلىٰ أنَّ الأسباب جميعها لا تعمل بمفردها بمعزل عن تقدير الله، فالسَّبب لا يعمل إلَّا بأمر الله، والله -تعالىٰ- قد يخرق العادة فيوجد الشَّيء دون سبب، وقد يوجد السَّبب، ولا يحصل الشَّيء، فقد يعطل الله الأسباب عن العمل، وقد يوجد الله نتائج بلا أسباب ليبين للنَّاس عظمته وقدرته.

٢-كلام عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالمهد

لما ضاق علىٰ مريم الحال، وامتنع المقال، عظم التوكل علىٰ ذي الجلال، ولم يبقَ إلَّا الإخلاص والاتِّكال بعد ما اشتد عليها قومُها بسوء المقال: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩]، قالوا: كيف تحيلين الجواب لصبي رضيع في مهده لا ينطق؟ عندها ظهرت قدرة الله وعظمته، فأنطق عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فـ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم]. هذا أول كلام تفوَّه به عيسىٰ بن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو التوحيد وإفراد الله بالعبادة، فبإظهاره عبوديته لله تعالىٰ، دليلٌ علىٰ أنَّه عبد لا يعبد ونبي لا يكذب. يقول السَّعديّ: «وفي تكليمهم في المهد آية عظيمة من آيات الله ينتفع بها المؤمنون، وتكون حجة علىٰ المعاندين، أنَّه رسول ربِّ العالمين، وأنَّه عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لوالدته ممّا رميت به»[(١)]، ففي قصة مريم عليها السلام وكلام ابنها عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في المهد آيات مؤثرة في النَّفس، لذا؛ فلا تعجب عند ما تدمع عينا النَّجاشيِّ عند سماعها، كما جاء في هجرة الصَّحابة للحبشة، حيث قرأوا عليه (سورة مريم)، فلمَّا سمعها ذرفت عيناه، فلعلَّه لأوَّل مرَّة يسمع الخبر عن الدَّليل القاطع علىٰ صدق مريم عليها السلام وبراءتها؛ لأنَّ عامَّة الأناجيل لم تشر إلىٰ كلام عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في المهد، مع أنَّه أقوىٰ دليل علىٰ صدق مريم عليها السلام.

٣- خلق الطير من طين بإذن الله

رُوي أنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمَّا ادَّعىٰ النُّبوَّةَ وأظهر المعجزاتِ طالبوه بخلق الخُفَّاشِ، فأخذ طينًا وصوَّره ونفخَ فيه، فإذا هو يطيرُ بين السَّماء والأرض، قال وهْبٌ: كان يطير ما دام الناسُ ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتًا ليتميَّز من خلقِ الله تعالَىٰ. قيل: إنَّما

(١) تفسير السّعدي (١٣١) بتصرف.

طلبوا خلق الخُفَّاشِ؛ لأنَّه أكملُ الطَّير خلقًا، وأبلغ دلالة علىٰ القُدرة؛ لأنَّ له ثُدِيًّا وأسنانًا، وهي تحيض وتطُهر وتلِد كسائر الحيوان، وتضحك كما يضحك الإنسانُ، وتطير بغير ريش، ولا تُبصِرُ في ضوء النَّهار ولا في ظلمة الليل، وإنّما ترىٰ في ساعتين ساعةٍ بعد الغروب وساعةٍ بعد طلوع الفجر. وقيل: خَلَق أنواعًا من الطير[1].

قال تعالىٰ: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فنرىٰ أن الجملة الكريمة قد اشتملت علىٰ ثلاثة أعمال: ثنتان منهما لعيسىٰ وهما تصوير الطين كهيئة الطير، ثم النفخ فيه. أمَّا الثالث فهو من صنع الله -تعالىٰ- وحده ألا وهو خلق الحياة في هذه الصورة التي صوَّرها عيسىٰ ونفخ فيها. وهذا يدلّ دلالة واضحة علىٰ أنَّه ليس في عيسىٰ ألوهية، ولا أي معنىً من معانيها. ولذا حكىٰ الله -تعالىٰ- عنه أنَّه قال: بِإِذْنِ اللهِ.

٤-إحياء الموتىٰ بإذن الله

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قد أحيا عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أربعة أنفس، عازر وابن العجوز، وابنة العاشر، وسام بن نوح. فأمَّا عازر فكان صديقًا له، فأرسلت أخته إلىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّ أخاك عازر يموت، وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيَّام، فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيَّام، فقال لأخته: انطلقي بنا إلىٰ قبره، فانطلقت معهم إلىٰ قبره، فدعا الله -تعالىٰ- فقام عازر وودكه يقطر، فخرج من قبره، وبقي ووُلُد له .وأمَّا ابن العجوز مرَّ به ميتًا علىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ سرير يحمل، فدعا الله عيسىٰ فجلس علىٰ سريره، ونزل عن أعناق الرِّجال، ولبس ثيابه، وحمل السَّرير علىٰ عنقه، ورجع إلىٰ أهله، فبقي ووُلُد له .وأمَّا ابنة العاشر كان أبوها رجلًا يأخذ العُشُور، ماتت له بنتٌ بالأمس، فدعا الله -عزَّ وجلَّ- باسمه الأعظم، فأحياها الله تعالىٰ وبقيت بعد ذلك زمنًا، ووُلُد لها . وأمَّا سام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فإنَّ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء إلىٰ قبره، فدعا باسم الله الأعظم، فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه خوفًا من قيام السَّاعة، ولم يكونوا يشيبون في ذلك الزَّمان، فقال: قد قامت القيامة؟ قال: لا، ولكن دعوتك باسم الله الأعظم، ثمّ قال له: مُتْ. قال: بشرط أن يعيذني الله من سكرات الموت. فدعا الله ففعل[2].

---

(١) تفسير أبي السعود (٢/ ٣٩).

(٢) تفسير البغوي (١/ ٤٤٢).

ففي إحياء الموتىٰ بإذن الله دلالة واضحة علىٰ قدرة الله وعظمته، وأنَّ الله لا يعجزه شيءٌ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤]، فإن من أعطىٰ عبدا من عباده القدرة علىٰ إحياء الموتىٰ بإذنه فهو قادر علىٰ إحياء الأنفس جميعا لأنه -سبحانه- لا يصعب عليه شيء.

كما أن في رؤية الموتىٰ وقد أحياهم الله عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ زيادة يقين وإيمان؛ لذلك طلب إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من ربِّه هذا الطلب، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وذلك ليرىٰ العجب الذي يتمثله، ولم تقع عليه حاسة بصره.

٥-إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله

إن الطب في عهد عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ارتقىٰ إلىٰ درجة عالية، فأتاهم بآيات لا يقدر الأطباء علىٰ مثلها؛ كما أن محمدًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ترقىٰ في عهده الكلام إلىٰ منْزلة عالية في البلاغة، والفصاحة؛ فآتاه الله سبحانه وتعالىٰ القرآن العظيم الذي عجزوا أن يأتوا بمثله، قال تعالىٰ علىٰ لسان عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وخصَّ إبراء الأكمه والأبرص بالذِّكر؛ لأنّهما مرضان عضالان لم يصل الطب إلىٰ الآن إلىٰ طريقٍ للشِّفاء منهما، فإذا أجرىٰ الله -تعالىٰ- علىٰ يد عيسىٰ الشِّفاء منهما كان ذلك دليلًا علىٰ أنَّ من وراء الأسباب والمسببات خالقًا مختارًا لا يعجزه شيء[1].

ففي إبراء ذوي هذه الأوجاع من الدَّلائل علىٰ صدق نبوة عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وأنَّه مؤيَّدٌ من عند الله -تعالىٰ-، لذا؛ علىٰ المسلم أن يتعلَّق بالله -تعالىٰ- عند ما تتراكم عليه الأوجاع، وتعجز الأطباء عن مداواته، فإنَّ عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ربط هذا الشِّفاء بإذن الله تعالىٰ، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [الأنعام].

---

(١) التفسير الوسيط (٢/ ١١٣).

المبحث الخامس: مظاهر تعظيم الله في سيرة نبينا محمد ﷺ

تعدُّ سيرة نبيِّنا محمد ﷺ لبُّ الإسلام وروحه، وتجسيدًا حيًّا لتعاليم القرآن، فالنبيُّ ﷺ هو أوَّل وأعظم من فهم القرآن الكريم، فقد بيَّن النَّبيُّ عظمة الله من خلال حياته العملية والدَّعوية بيانًا شافيًا لكلِّ من أراد الاستقامة علىٰ الدِّين، فلو أمعن الإنسان النَّظر في السِّيرة النَّبوية لوجدها من مبتدئها إلىٰ منتهاها إجلالًا لله تعظيمًا له ولأوامره، وسيذكر الباحثُ في هذه الورقة علىٰ سبيل الإيجاز شيئًا من مظاهر تعظيم الله -تعالىٰ-، وهي كما يلي:

١- خطاب الأشجار والأحجار وانقيادها للنبي ﷺ

عَنْ مَعْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، قَالَ: سَأَلْتُ مَسْرُوقًا: مَنْ آذَنَ النَّبِيَّ ﷺ بِالْجِنِّ لَيْلَةَ اسْتَمَعُوا القُرْآنَ؟، فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبُوكَ (يَعْنِي: عَبْدَ اللهِ) أَنَّهُ آذَنَتْ بِهِمْ شَجَرَةٌ[1].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ بِمَ أَعْرِفُ أَنَّكَ نَبِيٌّ؟ قَالَ: إِنْ دَعَوْتُ هَذَا العِذْقَ مِنْ هَذِهِ النَّخْلَةِ تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَعَلَ يَنْزِلُ مِنَ النَّخْلَةِ حَتَّىٰ سَقَطَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: ارْجِعْ. فَعَادَ، فَأَسْلَمَ الأَعْرَابِيُّ[2].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»[3].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ جَالِسٌ حَزِينًا، قَدْ خُضِبَ بِالدِّمَاءِ، ضَرَبَهُ بَعْضُ أَهْلِ مَكَّةَ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ: فَعَلَ بِي هَؤُلَاءِ وَفَعَلُوا، قَالَ: فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَتُحِبُّ أَنْ أُرِيَكَ آيَةً؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَىٰ شَجَرَةٍ مِنْ وَرَاءِ الْوَادِي، فَقَالَ: ادْعُ بِتِلْكَ الشَّجَرَةِ. فَدَعَاهَا، فَجَاءَتْ تَمْشِي حَتَّىٰ قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: مُرْهَا فَلْتَرْجِعْ. فَأَمَرَهَا فَرَجَعَتْ إِلَىٰ مَكَانِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: حَسْبِي[4].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلاَ أَجْعَلُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ لِي غُلاَمًا نَجَّارًا، قَالَ: إِنْ شِئْتِ، قَالَ: فَعَمِلَتْ لَهُ المِنْبَرَ، فَلَمَّا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٥٩).

(٢) أخرجه التّرمذي (٣٦٢٨)، وصححه الألبانيّ في (صحيح سنن التّرمذيّ).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٧).

(٤) أخرجه أحمد (١٢١١٢).

كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ المِنْبَرِ الَّذِي صُنِعَ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا، حَتَّىٰ كَادَتْ تَنْشَقُّ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ أَخَذَهَا، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ، حَتَّىٰ اسْتَقَرَّتْ، قَالَ: بَكَتْ عَلَىٰ مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ[1].

إنَّ النَّباتات والجمادات من مخلوقات الله الدَّالَّة علىٰ عظمته وقدرته، فنجد شجرة تشهد للنَّبيِّ ﷺ بالنُّبوّة، وأخرىٰ تخبره باستماع الجنِّ إلىٰ قراءته ﷺ، وثالثة تحنُّ وتئن أنين الصَّبيِّ حزنًا علىٰ فراق النَّبيِّ ﷺ، وتأثُّرًا بما سمعت من المواعظ والذِّكر، ورابعة تنقاد لأمره وتستره، أمَّا الأحجار فهي تسبِّح بين يديه ﷺ، فهذه مخلوقات عظيمة جعلها الله بقدرته دلائل من دلائل نبوة المصطفىٰ ﷺ، فالنباتات والجمادات بجميع أنواعها وأصنافها تسجد وتخضع لله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن].

فعندما يتأمل المسلم هذا المواقف التي سخر الله فيها هذه النباتات وهذه الجمادات لنبي الرحمة الدالة علىٰ وجود خالق عظيم، فإن هذا الخالق يعظم في قلبه، وقدره حق قدره.

٢-خضوع الحيوانات وأدبها مع النَّبيِّ ﷺ

عن عائشة، قالت: كان لآل رسول الله وحشٌ، فإذا خرج رسول الله ﷺ لعب واشتد وأقبل وأدبر، فإذا أحسَّ رسول الله ربض فلم يترمرم ما دام رسول الله في البيت كراهية أن يؤذيه[2].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بغلته، وَأَرْدَفَنِي خَلْفَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا تَبَرَّزَ كَانَ أَحَبَّ مَا تَبَرَّزَ فِيهِ هَدَفٌ يَسْتَتِرُ بِهِ، أَوْ حَائِشُ نَخْلٍ، فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا فِيهِ نَاضِحٌ لَهُ. فَلَمَّا رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ، حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ وَسَرَاتَهُ، فَسَكَنَ فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟»، فَجَاءَ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: «أَلا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّهُ شَكَاكَ إِلَيَّ، وَزَعَمَ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٨١٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٥٤).

وعن سَفِينَةَ مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: رَكِبْتُ الْبَحْرَ، فَانْكَسَرَتْ سَفِينَتِي الَّتِي كُنْتُ فِيهَا، فَرَكِبْتُ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِهَا فَطَرَحَنِي اللَّوْحُ فِي أَجَمَةٍ فِيهَا الْأَسَدُ، فَأَقْبَلَ إِلَيَّ يُرِيدُنِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْحَارِثِ، أَنَا مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَطَأْطَأَ رَأْسَهُ، وَأَقْبَلَ إِلَيَّ فَدَفَعَنِي بِمَنْكِبِهِ حَتَّىٰ أَخْرَجَنِي مِنَ الْأَجَمَةِ، وَوَضَعَنِي عَلَىٰ الطَّرِيقِ، وَهَمْهَمَ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوَدِّعُنِي، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ عَهْدِي بِهِ»[1].

إنَّ الحيوانات من مخلوقات الله العجيبة التي دعانا الله لنتأملها، ونمعن النظر فيها فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية]، فجعلها الله آية لأهل العلم واليقين، قال تعالىٰ: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية]، وهذه الحيوانات تعظم الله تعالىٰ وتقدسه وتقدِّره حقَّ قدره، ومن مظاهر تعظيمها لله أنها تسجد له قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل]، ومن مظاهر تعظيمها لله أنها تسبح بحمده، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور]، ففي خضوع الحيوانات للنبي ﷺ ما يدلّ علىٰ عجيب صنعه، فتبارك الله أحسن الخالقين، الذي وهبنا العقل والبصيرة، لنتفكر في خلقه، ففي الحيوانات ما يدلّ علىٰ معجزات الله تعالىٰ، التي لا تُعد ولا تُحصىٰ، فجمل هائج يسجد للمصطفىٰ ﷺ إجلالًا وتعظيمًا، لا تقرّبًا وعبادة، ووحش في بيت النبيِّ ﷺ يسكن حياءً من النبيِّ ﷺ، وأسدٌ مفترسٌ يتحوَّل إلىٰ حارس لطيف عندما علم أنَّ هذا الرجل هو مولىٰ رسول الله، سبحانك ربِّي ما ألطفك! سبحانك ربِّي ما أعظمك!

٣- تكثير الطَّعام ببركة النَّبيِّ ﷺ

إنَّ من المعجزات الخارقة لعادات البشر التي تشهد بالنبوَّة للأنبياء ما يجعله الله علىٰ أيديهم من البركة التي ينتفع بها الناس، وقد كثُرت الأخبارُ وتكاثرت عن نبينا محمد ﷺ وهي تتحدث عمّا كتب الله من تكثير القليل ببركته، فقد تكرّرت هذه المعجزة لرسول الله ﷺ في أماكن مختلفة، ومناسبات متعددة، فنذكر منها ما جاء من حديث قَيْسِ بْنِ النُّعْمَانِ أنه قَالَ: لَمَّا انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ مُسْتَخْفِينَ مَرَّا بِعَبْدٍ يَرْعَىٰ غَنَمًا، فَاسْتَسْقَيَاهُ مِنَ اللَّبَنِ، فَقَالَ: مَا عِنْدِي شَاةٌ تُحْلَبُ غَيْرَ أَنَّ هَا هُنَا عَنَاقًا حَمَلَتْ أَوَّلَ الشِّتَاءِ، وَقَدِ أَخْدَجَتْ وَمَا بَقِيَ لَهَا لَبَنٌ، فَقَالَ: «ادْعُ بِهَا»، فَدَعَا بِهَا،

(١)الحاكم (٢/ ٧٠٢)

فَاعْتَقَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَمَسَحَ ضَرْعَهَا، وَدَعَا حَتَّىٰ أَنْزَلَتْ، قَالَ: وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمِجَنٍّ فَحَلَبَ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ حَلَبَ فَسَقَىٰ الرَّاعِيَ، ثُمَّ حَلَبَ فَشَرِبَ، فَقَالَ الرَّاعِي: بِاللهِ مَنْ أَنْتَ فَوَ اللهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَكَ قَطُّ، قَالَ: «أَوَ تُرَاكَ تَكْتُمُ عَلَيَّ حَتَّىٰ أُخْبِرَكَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنِّي مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، فَقَالَ: أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ قُرَيْشٌ أَنَّهُ صَابِئٌ، قَالَ: «إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ ذَلِكَ»، قَالَ: فَأَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ، وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ مَا فَعَلْتَ إِلَّا نَبِيٌّ، وَأَنَا مُتَّبِعُكَ، قَالَ: «إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ، فَإِذَا بَلَغَكَ أَنِّي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنَا»[(١)].

وقد جاءت هذه المعجزة مكافأةً ربّانية لأحد الصحابة فعَنْ جَابِرٍ: أَنَّ رَجُلًا أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَطْعِمُهُ، فَأَطْعَمَهُ شَطْرَ وَسْقِ شَعِيرٍ، فَمَا زَالَ الرَّجُلُ يَأْكُلُ مِنْهُ وَامْرَأَتُهُ وَضَيْفُهُمَا، حَتَّىٰ كَالَهُ، فَأَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «لَوْ لَمْ تَكِلْهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ، وَلَقَامَ لَكُمْ»[(٢)].

وأعجب من ذلك، ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيثُ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ بتمرات، فقلت يا رسول الله، ادع الله فيهنَّ بالبركة، فضمَّهن، ثمّ دعا لي فيهنَّ بالبركة، وقال: «خُذهنَّ واجعلهنَّ في مِزْوَدِك هذا، أو في هذا المزود، كلَّما أردت أن تأخذ منه شيئًا، فأدخل فيه يدك، فخذه، ولا تنثره نثرًا». ويذكر أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ظلّ يأكل من ذلك التَّمر زمانًا طويلًا، واستمرّ حتىٰ يوم مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)].

والمواقف في هذا كثيرة جدًّا فتكثير الطعام كان معجزة أيّد الله بها نبيه ﷺ، شاهدها الناس، وعايشها أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فكان لها أثرٌ كبير في دخول الناس في دين الله، وتركت صدىً عظيمًا في نفوس المسلمين، وأسهمت في زيادة إيمانهم وتعلقهم بربهم، وحلّ مشكلاتهم وأزماتهم، فسبحان من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

٤- شفاء الأمراض علىٰ يدي النبي ﷺ

أيَّد الله خاتم أنبيائه وعظيم رسله ﷺ بما أيد به عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من شفاء المرضىٰ علىٰ يديه، ومن ذلك: أنَّه دعاء لعليِّ بن أبي طالب وبصق في عينه من رمد أصابه، فَبَرأ كأن لم يكن به وجع[(٤)].

---

(١) أخرجه الحاكم (٤٢٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٨١).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٠٢).

والأعجب من ذلك ما ثبت عاصم بن عمر بن قتادة، عن أبيه، عن جدِّه، قال: أصيبت عينه يوم أحد، أو يوم بدر، فسالت علىٰ وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، ثمّ قالوا: نأتي رسول الله ﷺ نستشيره، فأتوا النبي فذكروا ذلك له، قال: فوضعها في موضعها، ثم غمزها براحته، ثم قال: «اللهم، أَكْسِبْهُ جَمَالًا»، قال: فما يدري من لقيه، أيّ عينيه أصيبت[١].

ولم تقف معجزاته ﷺ عند هذا الحدِّ، بل كان يمسح علىٰ الكسر فيُجْبَر، كما مسح علىٰ قدم عبد الله بن عتيك لما انكسرت فبرأت كأنها لم تشتك قط[٢].

هذه المواقف وغيرها من الكرامات العظيمة، والمنح الكثيرة، التي أكرم الله بها نبيه ﷺ؛ تأييدًا لدعوته، وتصديقا لنبوته، كان لها الأثر الكبير في تثبيت كثير من الصَّحابة علىٰ الإسلام، وزيادة إيمانهم، فإن الله هو الشَّافي -تعالىٰ-، وجعل نفثه ﷺ وريقه ودعاءه سببًا في ذلك، ليكون دليلا قاطعا وبرهانًا ساطعا من براهين نبوته ﷺ، والمسلم إذا تأمل هذه المواقف امتلأ قلبه إجلالًا لربِّه، وتعظيمًا له، فأورثه ذلك محبَّة وخشوعًا لله، وامتثالا لأوامره، واجتنابًا لنواهيه.

٥- حماية المصطفىٰ ﷺ من كل ما يكاد به

لقي رسول الله ﷺ من أعدائه الأذىٰ، والشدة، منذ جهر بدعوته، ولكن الله تبارك وتعالىٰ حفظه ونصره، وعصمه من الناس، فقد أنجاه الله من المؤامرات التي واجهته منذ بعثته ﷺ، وقد أخبره الله وأنبأه بحفظه وسلامته من كيدهم وعدوانهم، فقال له: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، قال ابن سعدي: «هذه حماية وعصمة من الله لرسوله من النَّاس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك علىٰ التعليم والتبليغ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين فإن نواصيهم بيد الله وقد تكفل بعصمتك»[٣].

ويحدِّثنا عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عن صورة من صور حفظ الله وحماية لنبيه ﷺ فيقول: إِنَّ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ، فَتَعَاهَدُوا بِاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَىٰ لَوْ قَدْ رَأَيْنَا مُحَمَّدًا، قُمْنَا إِلَيْهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَلَمْ نُفَارِقْهُ حَتَّىٰ نَقْتُلَهُ، قَالَ: فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَبْكِي حَتَّىٰ دَخَلَتْ عَلَىٰ أَبِيهَا، فَقَالَتْ: هَؤُلَاءِ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِكَ فِي الْحِجْرِ، قَدْ تَعَاهَدُوا أَنْ لَوْ قَدْ رَأَوْكَ قَامُوا إِلَيْكَ فَقَتَلُوكَ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا قَدْ عَرَفَ نَصِيبَهُ مِنْ دَمِكَ، قَالَ:

---

(١) أخرجه أبو عوانة (٧٣٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٣٩).

(٣) تفسير السعدي (٢٣٩).

«يَا بُنَيَّةُ أَدْنِي وَضُوءًا» فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ، قَالُوا: هُوَ هَذَا، هُوَ هَذَا. فَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ، وَعُقِرُوا فِي مَجَالِسِهِمْ، فَلَمْ يَرْفَعُوا إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ، وَلَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ رَجُلٌ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ حتَّىٰ قَامَ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ، فَحَصَبَهُمْ بِهَا، وَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ»، قَالَ: فَمَا أَصَابَتْ رَجُلًا مِنْهُمْ حَصَاةٌ إِلَّا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا[1].

وعن ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الكَعْبَةِ لَأَطَأَنَّ عَلَىٰ عُنُقِهِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «لَوْ فَعَلَهُ لَأَخَذَتْهُ المَلاَئِكَةُ».

وفي الهجرة النبوية ظهرت صور متعددة لحفظ الله لنبيِّه ﷺ، منها: ما ذكره أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: فَارْتَحَلْنَا بَعْدَمَا مَالَتِ الشَّمْسُ، وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ، فَقُلْتُ: أُتِينَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا»، فَدَعَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فارتطمت بِهِ فَرَسُهُ إِلَىٰ بَطْنِهَا فِي جَلَدٍ مِنَ الأَرْضِ، فَقَالَ: إِنِّي أُرَاكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ، فَادْعُوَا لِي، فَاللهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ، فَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ نجا، فَجَعَلَ لاَ يَلْقَىٰ أَحَدًا إِلَّا قَالَ: قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هُنَا، فَلاَ يَلْقَىٰ أَحَدًا إِلَّا رَدَّهُ[2].

ومن الأمثلة: ما رواه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُحَارِبَ خَصَفَةَ بِنَخْلٍ، فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِرَّةً، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالَ لَهُ: غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ، حَتَّىٰ قَامَ عَلَىٰ رَأْسِ رَسُولِ اللهِ بالسيف، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللهُ»، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ الله ﷺ، فقال: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟»، قَالَ: كُنْ كَخَيْرِ آخِذٍ، قَالَ: «أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّىٰ سَبِيلَهُ[3].

فحقٌّ علىٰ من عرف قدر الله، وأراد تعظيمه أن يُعَظِّم ما عظَّمه تعالىٰ من تعظيم رسوله محمد ﷺ، وغير خاف علىٰ مسلم صادق في إسلامه تلك المنزلة الرفيعة التي حباها ربنا تعالىٰ لصفوة خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله حبيبنا محمد ﷺ المتمثلة بحفظه من كيد الفجار، وشرِّ الأشرار كما في الأمثلة السابقة، فلربنا -تبارك وتعالىٰ- أرفع القدر وأعظم الشَّأن؛ فله العظمة الكاملة التي تتجلَّىٰ في ذاته العلية، وأفعاله الزَّكية.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٥١٩٠).

المبحث السادس: تربية الناشئة على تعظيم الله في ضوء قصص أولي العزم من الرسل

إنَّ التربية هي صمام الأمان للفرد والمجتمع، وهي الحصن الحصين، والسد المنيع والحجاب الحاجز من كل ما يضر بالفرد أو يخلخل المجتمع، وتعظم التربية حينما تتعلق بتعظيم الله، فإنه إذا عظم الله في القلب كان ذلك هو الموجه الحقيقي لسلوك الإنسان سبيل الخير، فلا يوجد قانون من قوانين البشر يستطيع أن يجعل سلوك الإنسان سلوكا سويا مستقيما كما يصنعه تعظيم الله في القلب؛ لذا سيتناول الباحث فما يلي أساليب وطرق تربية الناشئة علىٰ تعظيم الله في ضوء قصص أولي العزم من الرُّسل، وهي:

١- استخدام أسلوب القصة كأسلوب تربوي شيق محبب للنفوس، بما تحتويه من تشويق وحوار وأحداث وشخصيات وزمان ومكان، وقد اهتم بها الإسلام اهتماما كبيرا، واتخذها أسلوبا تربويا تهذب به النفوس، ويدعىٰ به إلىٰ مكارم الأخلاق ويحذر من سيئها؛ ومن ذلك استخدامها في تعظيم الله، فينبغي علىٰ الآباء والأمهات أن يجعلوا لهم جلسات عائلية، تقرأ فيها قصص الأنبياء، ومن ثم يستخدم أسلوب العصف الذهني لاستخراج الفوائد والعبر، ومن ثم ربطها بقدرة الله وعظمته تعالىٰ.

٢- تعظيم الأنبياء في قلوب الناشئة من أجل أن يكونوا هم القدوة المطلقة في أعينهم، فإن للقدوة الحسنة دورا عظيما في التربية لمختلف فئات المجتمع؛ لأنها تساهم بشكل فعال في بناء شخصية الإنسان في جميع جوانب التربية، وهي من الأمور الضرورية لكل إنسان، فلابد للإنسان من قدوة سواء في الخير أو في الشر، وأعظم قدوة تربي علىٰ تعظيم الله وإجلاله، هم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

٣- التربية علىٰ قوة التوكل علىٰ الله، والاعتماد عليه في جميع الأمور، وأن الأمر كله بيد الله، وأن الأمة لو اجتمعوا علىٰ أن يضروه بشيء لم يكتبه الله عليه لم يستطيعوا، ويظهر ذلك واضحا جليا في قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين اجتمع عليه قومه وأرادوا أن يحرقوه فقال الله للنار كوني بردا وسلاما، وكذلك من خلال قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين تحدىٰ قومه وأمرهم أن يجتمعوا عليه فيكدوا له فلم يستطيعوا.

٤- الخروج مع الأبناء والعائلة إلىٰ الصحراء والتأمل في خلق الله تعالىٰ كما أمر نوح قومه أن يتفكروا في خلق الأرض كيف بسطها الله، وذللها لنا، وجعل لنا فيها سبلا، وطرقا؟ وكيف ثبتها بالجبال الراسيات؟

٥- فإن هذا التأمل يزرع في قلب الشاب تعظيما لله وإجلالا، وخشية، ومحبة، وخضوعا وانقيادا للواحد الأحد.

٦- التربية علىٰ قول (حسبي الله ونعم الوكيل)، وأنّها من أعظم الأدعية الواردة في الكتاب والسنة الصحيحة وشرح معناها للناشئة، وأنها تقال عند ورود الشدائد، وتكالب الأعداء، استنادا إلىٰ قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإنها الكلمة التي قالها عندما اجتمع عليه قومه ليحرقوه فقال: هذه الكلمة المشعرة بكفاية وحفظه، فكفاه الله وحفظه، الصحابة الكرام في أعقاب معركة أُحُد، في «حمراء الأسد»، وذلك حين خوَّفهم بعضُ المنافقين بأن أهل مكة جمعوا لهم الجموع التي لا تهزم، وأخذوا يثبِّطون عزائمهم، فلم يزدهم ذلك إلا إيمانا بوعد الله، وتمسكا بالحق الذي هم عليه، فقالوا: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران][1].

٧- التربية علىٰ الانقياد لأوامر الله، واجتناب نواهيه وأن هذه الصفة هي أعظم صفة يتميز بها الأولياء والأتقياء، مع تبشيرهم بأن العاقبة ستكون خيرا للإنسان في دينه ودنياه، كما حصل لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين انقاد لأمر الله في قتل ابنه الذي ليس له غيره، فبشره الله ببقاء ابنه، ورزقه أبنا آخر، بل أصبح خليلا لله تعالىٰ، والانقياد لأوامر الله هي صفة أتباع محمد ﷺ قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

٨- زيارة الأماكن العلمية المتاح فيها استخدام ما يعرف بالقبة السماوية والتلسكوبات الفلكية لمشاهدة الأجرام السماوية من خلالها، واستثارة ذهن الابن بعظمة خالق هذا الكون الذي يشاهد أجزاء إعجازية منه؛ لأنَّ التَّفكُّر في ملكوت السَّموات يورث اليقين، قال تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) أخرجه أبو عوانة (٧٤٠٩).

وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ [الأنعام]، وعملا بوصية نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾﴾ [نوح].

٩- ينبغي علىٰ التربويين تكثيف برامج التفكر في مخلوقات الله، وهداية الله لخلقه كل بحسبه في القنوات الفضائية، واستنباط مظاهر تعظيم الله فيها، وعقد حوارات في مواقع التواصل الاجتماعي بالتعاون مع المشاهير، وذلك لمواجهة الفكر الإلحادي الذي بات يشكك بوجود الله.

١٠- التربية علىٰ التفكر في الأنفس من خلال مادة الأحياء والعلوم في المراحل، وربطها بحسن صنع الله وعظمته، والرد علىٰ النظريات التي ترىٰ أن الإنسان وجد عن طريق الطفرات الجينية، ونظرية النشوء والارتقاء.

١١- بالنسبة لجمعيات تحفيظ القرآن الكريم يمكنها أن تضمن في برامجها ساعات تأملية تربي فيها طلابها علىٰ تعظيم الله، وتدربهم علىٰ التدبر والتأمل في آيات الله المتعلقة بقصص الأنبياء.

١٢- إبراز المواقف التربوية التي يتجلىٰ فيها التوحيد، وعظم التعلق بالله سبحانه وتعالىٰ، وكيف كفىٰ الله تعالىٰ نبيه محمدا ﷺ شر الأشرار وكيد الفجار عندما توكل عليه وفوض أمره إليه، ولم يعتمد علىٰ نفسه طرفة عين.

١٣- استثمار فترة السفر بوسائل المواصلات المتعددة والتي يصطحب فيها الأب ابنه في تأمل ما يقابلهم من بدائع الخالق جل وعلا، من مناظر خلابة، وحدائق ذات بهجة، فيحاوره للتوصل إلىٰ أن هذا الجمال إنما هو أثر من آثار اسماء الله وصفاته وهذا أيضًا يؤكد علىٰ استثمار المواقف والمناسبات التي تجمع الأب مع ابنه ويمكن توظيفها لمعرفة آثار أسماء الله وصفاته عن طريق استخدام أسلوب الحوار.

١٤- تقديم المقررات الدراسية علىٰ شكل مشكلات تعليمية تفتح أمام الطلاب أبواب التأمل والنظر والتحليل والتركيب والاكتشاف الموجه والأنشطة الابتكارية والعصف الذهني والتخيل والتحويل والنهايات المفتوحة، استنادا إلىٰ قصة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عندما استخدم مع قومه هذا الأسلوب

١٥- استغلال المقررات العلمية في ترسيخ فكرة تكامل عالم الشهادة مع عالم الغيب إذ أن عالم الشهادة المحسوس يرشد إلىٰ عالم الغيب، فدورة النبات تفيد دورة

البعث من القبور؛ استنادا إلىٰ قول نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح].

١٦- إدراج مادة في التعليم النظامي تهتم بقصص الأنبياء وتعرضها بطريقة مشوقة، ومحببة للنفوس، يتم من خلاله استنباط الفوائد المتعلقة بعظمة الله وقدرته منها.

١٧- إقامة معارض يتم من خلالها تعريف أفراد المجتمع علىٰ معجزات الأنبياء، والآيات الدالة علىٰ صدقهم، ورد الشبهات التي تثار حولهم.

١٨- أن تعظيم الله يكون بالتربية علىٰ الوسطية والاعتدال في النظرة إلىٰ الحياة بين قوم غرقوا في الشهوات، وعبَّدوا أنفسهم للماديات وبين قوم رفضوا الحياة، ورأوها شرا يجب مقاومته والفرار منه، فنجد الأنبياء وهم أشد الناس تعظيما لله لم ينسوا نصيبهم من الدنيا، فقد تزوجوا، وصاموا وأفطروا، وقاموا وناموا، لذلك قال النبي ﷺ للذين تشددوا فتركوا النوم والزواج والفطر: «من رغب عن سنتي فليس مني»[1].

١٩- تنمية الحس الإيماني الذي يولد حيوية الشعور الإسلامي في الاستحياء من الله بمراقبته في السر والعلن، والخوف من عقوبته عند مخالفة أمره ومعاندته، فإن مصير كل من عاند الأنبياء هو الهلاك والدمار، فنجد أن فرعون لما علا في الأرض، وتكبر وتجبر، أذله الله وأغرقه، وجعله عبرة لمن اعتبر، وكذلك قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أغرقهم جميعا، فلم يذر منهم أحدا؛ وذلك بسبب مخالفة أمر الله تعالىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي وفق عباده الصالحين لفعل الخيرات، وشرع لهم ما يقيهم من السيئات، والصلاة والسلام الزكيان الأتمان علىٰ محمد المربي، الذي إلىٰ طريق الخير يهدي، وعن الشر يحذر ويقي، وعلىٰ آله وصحبه الكرماء، الذين امتثلوا أمره فأصبحوا في زمرة الأتقياء، فأصبحوا جيلا به المربي يقتدي، ومن جميل أقوالهم وأفعالهم ينتقي، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين،،

وبعد؛ فقد حاول الباحث في هذه الدراسة أن يبين أهم مظاهر تعظيم الله في قصص أولي العزم من الرسل وهي كالآتي:

- إن مظاهر تعظيم الله في قصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تجلت في التأمل في أطوار خلق الإنسان، والتفكر في خلق السماوات والأرض، واليقين والإيمان بالموت والبعث، والثقة بحفظ الله وكلاءته.
- أما مظاهر تعظيم الله في قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فتجلت في التوصل إلىٰ تعظيم الله عن طريق استخدام الأسلوب المنطقي العلمي في التفكير، وكمال التوكل علىٰ الله، اللجوء إلىٰ الله ودعائه عند ورود الشرور، تعظيم أوامر الله وعدم التردد في تنفيذها، والإيمان بقدرة الله الشاملة.
- أما مظاهر تعظيم الله في قصة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فتجلت في صدق الله وعده، والإيمان بخلق الله وهدايته لكل شيء، وسجود السحرة تعظيما لله، وتجلي الرب للجبل، وانفلاق البحر لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.
- أما مظاهر تعظيم الله في قصة عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فتجلت في خلق عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بلا أب، وكلامه في المهد، وخلقه للطير ونفخه فيه، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتىٰ كل ذلك بإذن الله.
- أما مظاهر تعظيم الله في قصة نبينا محمد ﷺ صلىٰ الله عليه وسلم فتجلت في خطاب الأشجار والأحجار وانقيادها له وخضوع الحيوانات وأدبها معه، وتكثير الطعام ببركته، وشفاء الأمراض علىٰ يديه، وحمايته من كل ما يكاد به.

وفي المبحث الأخير تطرق الباحث إلىٰ أساليب وطرق تربية الناشئة علىٰ تعظيم الله سبحانه وتعالىٰ.

وفي الختام يشكر الباحث الله -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ ما من به عليه من نعم عظيمة، وآلاء جسيمة، وعلىٰ ما أعانه عليه من تيسير هذا البحث، فما كان من صواب فمن الله -سبحانه وتعالىٰ- وما كان من خطأ فهو من النفس والشيطان.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين،،

المصادر والمراجع

- ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد. (١٤٢٤هـ). جامع العلوم والحكم. الرياض: دار السلام للنشر والتوزيع.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله. (١٣٩٣هـ). **مفتاح دار السعادة**. ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. (١٩٩٧م). التحرير والتنوير. تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل عمر. (١٤٢٠هـ). **تفسير القرآن العظيم**. ط ٢، الرياض: درا طيبة للنشر والتوزيع.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي(١٤٠٧هـ). **البداية والنهاية**. بيروت: دار الفكر
- أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ، (٢٠١٠م) إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- أبو بكر الجزائري، جابر بن موسىٰ(١٤٢٤ه). **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم.
- الأشقر، أدريس. **السماء بناء وزينة** تم استرجاعها في ٢٥/ ١/ ١٤٤١٤هـ من موقع الهيئة العالمية للكتاب والسنة.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. (١٤٢٢هـ)، **صحيح البخاري**. بيروت: دار طوق النجاة للنشر والتوزيع.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (١٤٢٠ه) **معالم التنزيل في تفسير القرآن**. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- البيهقي، أبوبكر أحمد بن الحسين(١١٤١٠هـ). **شعب الإيمان**. بيروت: دار الكتب العلمية
- الترمذي، محمد بن عيسىٰ. (د.ت). **الجامع الصحيح سنن الترمذي**. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- الحاكم، محمد بن عبد الله(١٤١١ه) **المستدرك علىٰ الصحيحين**. بيروت: دار الكتب العلمية.
- حنبل، أحمد. (١٤٢٠). **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. ط٢ بيروت: مؤسسة الرسالة.
- السجستاني (أبو داود)، سليمان بن الأشعث. (د. ت). **سنن أبي داود**. بيروت: دار الفكر.
- السعدي، عبد الرحمن ناصر. (١٤٢٠هـ). **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. الرياض: مؤسسة الرسالة.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، **الدر المنثور**. بيروت: دار الفكر.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر ا (١٤١٥ه) **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- الصنعاني عبد الرزاق بن همام بن نافع (١٤٠٣ه). **المصنف**. بيروت: المكتب الإسلامي
- طنطاوي، محمد سيد(١٩٩٨م). التفسير **الوسيط للقرآن الكريم**. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج. (١٤١٩هـ). **صحيح مسلم**. ط٦، بيروت: دار أحياء التراث العربي.